تراث الإنسانية

الحرب والسلم

لليوتولستوى



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

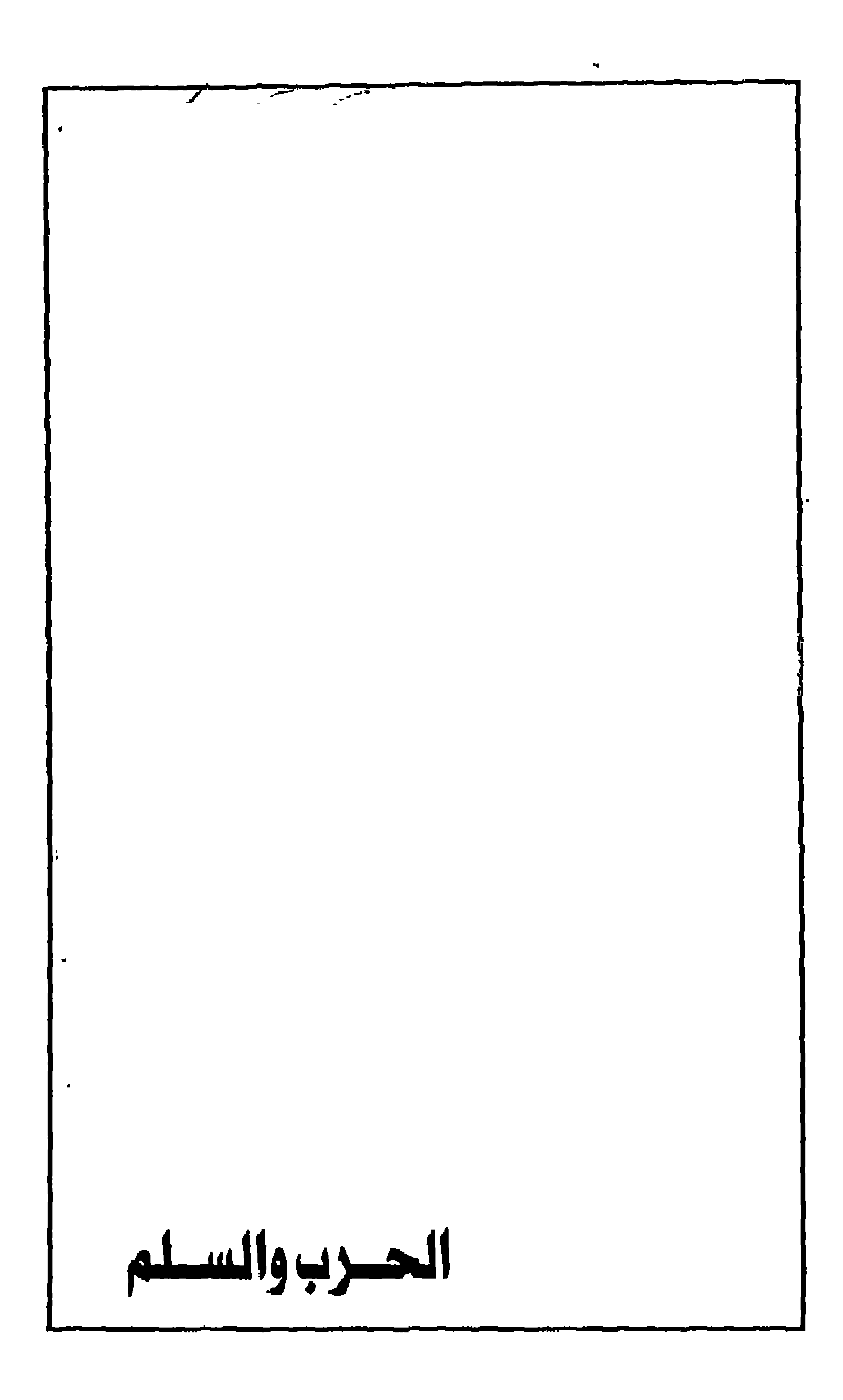
علی أدهم

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

إهــــــــداء 2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة


الحــرب والســلم

الحرب والسلم

لليوتولستوى

على أدهم



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى
مراد نسيم
أحمد صليحة

المشرف العام
د . سمير سرحان

الحرب والسلم
لليو تولستوى

الأستاذ على أدهم

من الحوادث الهامة في القرن التاسع عشر التى لفتت الأنظار ظهور الأدب الروسى وبلوغه مكانة سامية ملحوظة بين الآداب العالمية، وبروز الكتاب الروسيين فى طليعة الكتاب العالميين ذوى الشهرة الواسعة، والمشهود لهم بالتفوق والامتياز.

وفى النصف الأول من ذلك القرن لم يكن الأدب الروسى معروفاً فى غرب أوروبا، وقد وصف الروسيين حينذاك أديب واسع الإطلاع مثل توماس كارلايل بقوله عنهم «الروسيون العظماء الصامتون الذين لم يعبروا بعد عن أنفسهم فى آثار أدبية» ولكن لم يمض على هذه المقالة أكثر من ثلاثين سنة حتي صار الأدب الروسى عزيز المكانة بعيد الأثر في حياة أوروبا الثقافية.

والواقع أن وثبة الأدب الروسي تشبه من بعض الوجوه النهضة الأدبية التى حدثت في غرب أوروبا فى عصر الإحياء، ففى القرنين الخامس عشر الميلادى والسادس عشر تأثرت أوروبا بالأدب اليونانى والأدب الرومانى، ولكنها فى الوقت نفسه كان لها أسلوبها الخاص في الحياة وأفكارها واتجاهاتها التى تختلف عن أفكار الأمم القديمة واتجاهاتها، ولذلك لم يقف الأوروبيون من الأدب اليونانى والأدب الرومانى موقف المقلدين الخاضعين على فرط اعجابهم بنماذج الأدبين العظيمين، وإنما استوحوا الآيات الفنية فى الأدب الرومانى واليونانى لتكون لهم باعثاً على الابتكار والتجديد فى الأدب والفن، وشئ من هذا القبيل حدث فى روسيا، فقد وجد الروسيون فى أدب غرب أوروبا - سواء الأدب الإنجليزى أو الأدب الفرنسى أو الأدب الألمانى - حافزاً على الابتكار وشق الطريق فى عالم التجديد، وذلك لأن الروسيون كان لهم من فرديتهم المتميزة وملابسات حياتهم الخاصة وأحوالهم السياسية والاجتماعية ما ينأى بهم عن مجرد المحاكاة، ويدفعهم دفعاً إلى التعبير عن أنفسهم وتوصيف أحوال بيئتهم، واستطاع بذلك الأدب الروسى أن يرد الجميل

للأدب الغربي مضاعفاً، وأثر الكتاب الروسيون في الآداب الغربية تأثيراً واضحاً غير منكور.

وقد اشتهرت الرواية السيكولوجية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي هذا اللون من ألوان الأدب الروائي بوجه خاص أظهر الروائيون الروسيون براعة منقطعة النظير، وكشفوا الكثير من مغيبات الوعي الإنساني ومستكنات الضمير، وساعدهم على ذلك تلك الصراحة البريئة التي امتاز بها الروسيون وتحريهم الصدق في وصف ما يخالج نفوسهم، ويطوف بأفكارهم، ويعلل بعض النقاد ذلك بخلو الحياة الروسية من كثير من التقاليد التي أوجدتها في أمم غرب أوروبا حضاراتهم المعقدة، والكتاب الروسيون يتحدثون بصراحة تكاد تشبه صراحة الأطفال الناشئين، ولكن هذه الصراحة مقترنة بذكاء لماح وقدرة فائقة على سبر أعماق النفوس، ويبدو ذلك واضحاً في كبار ممثلي الأدب الروسي مثل تولستوي ودستويفسكي وتورجنيف وغيرهم، وتولستوي ودستويفسكي بوجه خاص لا يكادان يخفيان شيئاً، بل يذكران كل ما يجول بخواطرهما ويتراءى لهما في صراحة تروع القارئ ولكنها تستميل القلب وتأسر اللب، ولا خلاف في أن

الصدق والصراحة والإخلاص هى الصفات الأساسية في الأدب العظيم، وإن كان يتفاوت نصيب آداب الأمم منها تبعاً لأحوالها الاجتماعية ونظمها السياسية ومثلها العليا الأخلاقية، وعند تولستوى أن تحرى الحق والتزام الصدق هما أساس الأخلاق وأصل الفضيلة ولا شئ يثير نقمته ويؤذى شعوره مثل الكتمان ومحاولة الإخفاء، وهما فى رأيه دعامة الرذيلة وسندها.

ومن الصفات الباهرة المؤثرة التى اشتهر بها الأدب الروسى قوة العطف، وربما كان للظروف السياسية التى عاش فيها الروسيون أمداً طويلا أثر قوى فى هذا العطف المتفجر الذى تحفل به طرائف الأدب الروسى، وروسيا من الدول العظيمة التى عانت الكثير من سوء الحكم وفساده، وشقيت من قسوة حكامها وعنفهم بها وقد ساعد الظلم والطغيان الذى تعرضت له روسيا على جعل الكتاب الروسيون ينفذون إلى أعماق الشقاء الإنساني، ويعرفون مآسى البشرية التى تستدعى العطف وتستوجب الرحمة،والأمم كالأفراد تزيدها التجارب المرة التى تمر بها علماً بمآسي النفس الإنسانية، وتوسع دائرة عطفها وتجاربها.

والعظماء فى تاريخ الأمم، سواء تاريخها السياسى أو الأدبى، لا يجيئون فرادى، وقد كان تولستوى قمة عالية بين كتاب بعضهم يطاولونه ويقتربون من مستواه مثل دستويفسكى وتورجنيف وبعضهم يجرون فى حلبته وإن لم يبلغوا مكانته.

وقد ولد تولستوى فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٢٨ في قرية ياسنايا بوليانا القريبة من مدينة تولا على الطريق القديم الموصل إلى مدينة كيڤ، وكان والداه الكونت نيقولا تولستوى والأميرة مارى ڤولكونسكى، وكلاهما من أبناء الأسر الروسية المعروفة، وقد لعبت أسرة تولستوى دوراً هاماً فى تاريخ روسيا السياسى، وكان لجده بطرس - وهو أول من نال لقب كونت من أفراد الأسرة - مشاركة فى مقتل الكسيس ابن بطرس الأكبر، وقد عين رئيساً للشرطة السرية وحاز ثقة الإمبراطورة كاترين الأولى، ولما اعتلى العرش بطرس الثانى ابن الكسيس القتيل فقد الكونت تولستوى مكانته العالية، ولما كان فى تلك الفترة متقدماً فى السن فقد آوى إلى دير سولڤتسكى الواقع على البحر الأبيض فى شمال روسيا، وهناك وافته منيته، وجردت الأسرة من لقبها حيناً من الزمن ولكن فى أثناء حكم الإمبراطورة إليزابيث ابنه بطرس الأكبر أعيد إليها اللقب.

ووالدة تولستوى الأميرة مارى ڤولكونسكى كذلك من أسرة سامية المقام، وكثيرون من أقاربها كانوا من قواد روسيا العظام.

ووالد تولستوى ـ نيقولا تولستوى ـ حضر الحملات الحربية والغزوات فى سنة ١٨١٣ وسنة ١٨١٤ ووقع أسيراً فى يد الفرنسيين، وأطلق سراحه حينما دخلت جيوش الحلفاء باريس سنة ١٨١٥، وقد صور لنا تولستوى عدداً من أقاربه فى رواية الحرب والسلم، فنيقولا روستوف فى تلك الرواية هو والده، والأميرة ماريا بولكونسكى هى والدته، وكانت شخصيتها الحقيقية كما بدت فى الرواية شخصية امرأة جليلة القدر، نبيلة المنزع، مطبوعة على التدين، ولم يكن عمر تولستوى قد تجاوز عاماً ونصف عام حينما توفيت والدته، وقد استطاع أن يتصور شخصيتها ويقف على شريف سيرتها مما سمعه عنها من أقاربه الأدنين.

ومات والده وهو فى التاسعة من عمره، وقد تركه وأخوته الثلاثة وأخته فى وصاية شقيقته، ولكن التى تولت الإشراف على تربيتهم سيدة تمت إلى الأسرة بصلة القرابة البعيدة وهى السعيدة تانيانا يرجولسكى وكانوا يدعونها بالعمة، وكانت فى شبابها قد أحبت

الكونت نيقولا تولستوى وبادلها حباً بحب، ولكنها ضحت بحبها له لتمهد له السبيل إلى الزواج بوراثة غنية وهى الأميرة مارى ڤولكنسكى، وبعد الزواج ظلت على صلة وثيقة بأسرة الكونت، واكتسبت مودة زوجته، ولما ماتت زوجة الكونت أراد أن يتزوج تاتيانا ولكنها أبت ذلك خشية أن تفسد تلك العلاقة الطيبة التى ربطتها بزوجته المتوفاة وأطفالها، وكانت هذه السيدة مثالاً للخلق الكريم والسجايا الحميدة، وقد أسبغت عطفها على الأطفال وفيأتهم ظل رعايتها، وقامت من ليو مقام الوالدة العطوف التى لم يعرفها والوالد البر الذى سرعان ما فقده، وكانت مصدر سعادته فى طفولته، وقد اعترف هو نفسه بأنها صاحبة الفضل الأكبر فى تكوينه الأخلاقى، قال عنها «كان للعمة تاتيانا أعظم تأثير فى حياتى، فهى التى علمتنى وأنا فى مدارج الطفولة الفرح الأخلاقى بالحب، وهى لم توح إلى الحب بالكلام وإنما أوحته إلى بكيانها جميعه، وقد رأيت كيف كانت سعيدة بالحب وشعرت بذلك، وعرفت فرحة الحب، وكان هذا أول درس تعلمته، وكان الدرس الثانى الذى تعلمته منها هو جمال الحياة الهادئة المطمئنة المتوحدة».

وكان لكل واحد من الإخوة الأربعة شخصيته القوية، وكان ليو شديد الحب لأفراد أسرته وكان يختص أخاه نيقولا ـ الذى كان يكبره بست سنوات ـ بالنصيب الأوفر من حبه وعطفه، وكان لأخيه نيقولا مواهب سامية، وكان ليو نفسه يعتقد ويؤكد أن أخاه يفوقه فى المواهب والقدرة الفنية، وكانت العمة تاتيانا شديدة التدين تحسن إلى الرهبان والراهبات وتبر الفقراء وأبناء السبيل، وفى مثل هذا الجو الشعرى الدينى نشأ ليو تولستوى، وغير عجيب من تولستوى الذى قضى طفولته فى مثل هذا الجو أن يعود إلى الدين بعد أن غربت شمس الشباب وتمرس بتجارب الحياة، وبعد أن جرد الدين من الخرافات العالقة به والتقاليد الزائفة التى تحجب نوره وتخفى جوهره.

وقد التحق الأخوة بجامعة قازان، واختار ليو كلية اللغات الشرقية ليعد نفسه للسلك الديبلوماسى، ثم حاول دراسة القانون وغيرها من الدراسات، ولكنه لم يثبت على دراسة واحدة ولم يوفق فى الدراسات التى حاولها وترك الجامعة ناقما متبرماً، وعاد أدراجه إلى ياسنايا بوليانا عاقد العزم على أن يهب حياته للمزارعين وقد وصف لنا تولستوى فى كتابه «أحد ملاك

الأرض» تجارب بطل القصة نيكليدوف وهو يزور المزارعين الذين سألوه المساعدة، وكيف كانوا يعانون البؤس والشقاء فى أكواخهم الحقيرة، وقد أدرك بطل القصة أن مرد سوء حالة الفلاحين يرجع إلى سوء المعاملة التى يلقونها من مالك الأرض وصنائعهم، فقد كان هؤلاء الملاك لا يتورعون عن خداعهم واستلاب حقوقهم ولكنه فى الوقت نفسه لم يغمض الطرف عند عيوب الفلاحين وأخطائهم.

على أنه لم يثبت أن هجر الريف وعاد إلى بتروغراد وعاش ملياً عيشة لهو وقصف منغمساً فى الشهوات والموبقات معرضاً إلى حد كبير عن الدراسة، وقد وصف لنا حياته فى تلك الفترة فى كتابه المشهور «اعترافاتى» قائلاً «أردت مخلصاً أن أكون رجلاً صالحاً فاضلاً، ولكنى كنت شاباً وكان لى أهواء، وقد وقفت وحيداً لا مسعد لى فى طلب الفضيلة، وكنت كلما حاولت أن أعبر عن نزوع قلبى إلى الحياة الفاضلة بحق أقابل بالازدراء وضحك الزراية، ولكن حينما كنت أستسلم لأحط الأهواء كنت أمتدح وأشجع... ولا أستطيع أن أستعيد ذكريات تلك السنوات دون أن

يخاجلني شعور مؤلم بالاستفظاع والتقزز، وقد قتلت الرجال في الحرب، وبارزت الكثيرين لأقضى عليهم وخسرت في المقامرة، وأتلفت الأموال التي انتزعتها من عرق الفلاحين، وأنزلت بهم العقوبات القاسية، ولهوت وعربدت مع النساء الفاجرات وخدعت الناس ولم أتورع عن الكذب والسرقة، وكل ضروب الفحشاء، والسكر والعنف والقتل، ولم أقصر في اقتراف إثم من هذه الآثام ولم ينتقص ذلك كله من قدرى عند إضرابى ولم ينل من مكانتى».

والمتحدث هنا تولستوى الناسك المتشدد الذى يصدر الأحكام الصارمة على حياة اللهو والانحراف فى تلك الفترة من فترات حياته وتجاربه، وقد علمته هذه التجربة احتقار حياة الطبقة الأرستقراطية القائمة علي جنون الأثرة، ولم يتعرض بعد ذلك للسقوط فى مهاوى الرذيلة مرة أخرى.

وفى أثناء ذلك كان أخوه نيقولا يعمل فى فرقة المدفعية بالقوقاز، وفى سنة ١٨٥١ عاد إلى مقر الأسرة ورأى إقبال أخيه على اللهو والإسراف فى طلب المتعة، وخشى عاقبة ذلك، فحضه على مصاحبته إلى القوقاز.

وقضى تولستوى ثلاث سنوات فى القوقاز، وأفاد من جمال مناظرها وطيب هخوائها، واستيقظ فى نفسه الشعور الدينى والقوة الخالقة فظهر كتابه عن الطفولة سنة ١٨٥٢، وحظى الكتاب باعجاب النقاد الروسيون جميعاً، وقد وصف فيه تولستوى طفولته وصفاً سيكلوجياً بديعاً، وأمدته حياته فى القوقاز بمواد لكتابه الساحر عن القوزاق، ويطالع القارئ من صفحات هذا الكتاب مناظر سلاسل الجبال الشامخة التى تتوج الثلوج قممها الشماء ومشاهد الحياة الحرة الطليقة، ويكاد يستنشق هواء الغابات الفسيحة المترامية، ويحدثنا تولستوى عن لسان بطل القصة بأن هذه المناظر الرائعة كانت تثير فى نفسه لأول وهلة الشعور بالدهشة والإستغراب، ولما ألفها صارت تثير فى نفسه الشعور بالسرور والارتياح حتى صار كل ما يفكر فيه وكل ما يشعر به جليلاً رائعاً مثلها . ويرجع جانب من ضيقه بالحضاره ونقده لها إلى تلك السنوات التى قضاها فى هذه الخلوات الفيح والحياة الطبيعية البريئة من تعقيدات المدينة.

وغادر تولستوى فى سنة ١٨٥٣ القوقاز إلى شبه جزيرة القرم، ويسر له أقاربه الحصول على وظيفة فى

هيئة أركان حرب القائد الأعلى للجيش، فوصل إلى سيباستبول فى نوفمبر سنة ١٨٥٤ وتعرض هناك لأخطار محققة، فقد كان كثيراً ما يتطوع للقيام بمهمات فى غاية الخطورة، وقد عرف هناك فظائع الحرب ومآسيها الدامية وألف كتابه «قصص من سيباستبول» وقد لفت هذا الكتاب نظر القيصر نفسه وذاعت شهرته ووطد مكانة تولستوى الأدبية وقد علمته تجربة الحياة فى سيباستبول احترام الناس العاديين وتقديرهم فقد شاهد بعينيه مظاهر البطولة والإقدام والتضحية بالنفس التى أبداها الجنود فى ظروف قاسية وأحوال سيئة، ولم يكن ذلك من أجل غاية مادية أو مطمع شخصى وإنما كان ذلك فى سبيل مثل أعلى للوطنية، وقد وصف تولستوى فى هذا الكتاب سيكلوجية الحرب أبرع وصف وأصدقه والأحوال النفسية المختلفة التى يمر بها الجند المحاربون والصداقات النبيلة السريعة التى تنشأ بين الرجال المعرضين للموت فى كل لحظة واستشعار الغبطة فى القدرة على احتمال المتاعب التى تحتاج إلى أكثر مما فى طوق البشر، ويمكن أن نتتبع فى هذه القصة آثار موقف تولستوى مدرسة الفضائل البطولية ولكنه مع ذلك يمقتها أشد المقت، لأنها من ناحية أخرى

مضيعة للنفوس النبيلة، والغايات التى تثار الحروب من أجلها لا تستحق ما يبذل فى سبيلها من تضحيات، وتبدو هذه الغايات فى رأى تولستوى تافهة فارغة إلى جانب الدماء المراقة والجهود المبذولة والتضحيات الجمة التى تدفع ثمنا لها.

ويرم تولستوى بالمجد الحربى وزهد فيه، وعاد توأ بعد تسليم سيباستبول إلى بتروغراد، وتلقاه نوابغ أدباء عصره بالترحيب، وقدم إلى تورجنيف والشاعر فت الذى أصبح صديقه الحميم، على أن تولستوى لم يكن يحفل كثيراً بمصاحبة الكتاب والمؤلفين، وسرعان ما ابتعد عن جماعة أدباء بتروغراد.

وفى سنة ١٨٥٧ قـــام برحلة فى أوروبا، وزار باريس، وشاهد هناك إعدام أحد المجرمين، وقد جعله ذلك يكره عقوبه الإعدام طوال حياته، وزار كذلك سويسره، وفى لوسرن ساءه تنفج السائحين الإنجليز فكتب قصة قصيرة عنوانها «ألبرت» وهى تدور حول موسيقار متجول عامله الإنجليز بترفع غير مقبول مما أساء إلى شعور تولستوى الإنسانى وجعله من ناحية أخرى يبالغ فى إكرام الرجل وإظهار العطف عليه، وهى

تبين نزعة تولستوى فى حب التغلغل إلى أعماق النظام الإجتماعى وهو يبحث عن علة أى مظهر من مظاهر الظلم.

وفى سنة ١٨٦٠ مات أخوه الحبيب نيقولا بين ذراعيه، وكان أصيب بمرض السل، وكان تولستوى يكره الموت ويخشاه فزاده مصرع أخيه كراهية فى الموت وحيرة أمام لغزه، وقد وصف لنا ظروف موت أخيه حينما تحدث عن موت نيقولا ليفن عن أحد الأشخاص البارزين فى روايته الممتازة «أنا كارنينا».

ودرس تولستوى مبادئ التربية فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا، ولما أعلن تحرير الفلاحين فى روسيا سنة ١٨٦١ حاول تولستوى أن ينهض بعبء إنشاء مدارس لتعليمهم فى لتعليمهم فى ضيعته، وكانت آراؤه فى التربية متأثرة بنظريات روسو، وقد نظم مدارسه بطريقه مبتكرة تسمح للأطفال بالنمو العقلى الذى لا يلقى عقبات فى طريقه، وبالحرية التى تساعد على تكوين الشخصية المستقلة، وكان لآرائه فى التربية تأثير بعيد المدى فى روسيا، وكتب أقصوصات لأبناء الفلاحين تمتاز بالبساطة ودقة ملاحظة سلوك الحيوان والنبات

والأطفال أنفسهم، وبعضها عن مغامرات صيد الدببة والذئاب والأرانب، ولم يقتصر عطف تولستوى على الحيوان فقد شمل الأشجار والنبات، وبطبيعة الحال لم تعجب طريقة تولستوى فى تنشئة أطفال الفلاحين رجال دولة القياصرة ولذلك أغلقت هذه المدارس وألغيت نظمها.

وحدثت خلافات كثيرة بين النبلاء والمزارعين من جراء توزيع الأرض، وتطوع تولستوى بالقيام مقام الحكم بين الفريقين، وقد جر عليه ذلك نقمة جيرانه من الطبقة الأرستقراطية لأنه فى أغلب الأوقات كان ينصر المزارعين ويرد إليهم حقوقهم، وقد جعلته كثرة ما رأى من مخادعة الطبقة الأرستقراطية للفلاحين والعدوان على حقوقهم نصير الفلاح الروسى المدافع عن حقوقه فى ثبات وحماسة.

وفى سنة ١٨٦٢ تزوج تولستوى صوفيا بهرز وكان فى الرابعة بعد الثلاثين من عمره، ولم تكن سنها تتجاوز الثامنة عشرة، وعاش عيشة عائلة سعيدة، وكانت تلك الفترة أسعد أيام حياته، واتسع المجال أمام عبقريته للإنتاج الفنى العظيم ولو أنه فيما بعد لم يكن

راضياً عن هذه الفترة، وعد سعادته فى خلالها ضرباً من ضروب الأنانية.

ونجح فى إدارة شؤون ضيعته واكتسب مودة المزارعين، وأثبتت زوجته زنها من أشد الأمهات تقديراً لواجبات الأمومة ورعاية الأطفال، وفى هذه الفترة من حياته أتم تولستوى تأليف الروايتين العظيمتين اللتين رفعتا اسمه إلى مستوى المؤلفين الخالدين، وأبعدتا شهرته فى أنحاء العالم المتحضر، ووطدتا مكانته الأدبية، وهما رواية «الحرب والسلم» واستغرق تأليفها الفترة من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٩ ورواية «أنا كارنينا» وقد كتبتها فيما بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٦.

وكان تولستوى فناناً شديد المحاسبة لنفسه، فقبل الشروع فى تأليف رواية «الحرب والسلم» قام بدراسات تاريخية وافية، وقد فكر فى تأليف رواية عن عهد بطرس الأكبر ولكنه وجد أنه كلما أمعن فى دراسة ذلك العصر ازداد له كرهاً، واقتنع بأن الاصلاحات التى جاء بها بطرس الأكبر لم يكن يقصد بها الخير للأمة الروسية، وإنما كانت لمصلحته الشخصية وأنه لم يكن يرمى إلا إلى حياة لا أخلاقية طليقة من القيود.

ورواية أنا كارنينا بناها تولستوى على حادثة وقعت في الحياة الحقيقية، وهى انتحار شابة فى مقتبل العمر خانها التوفيق في الحب فقذفت بنفسها فى مواجهة أحد قطارات السكة الحديدية.

وكانت زوجته تساعده فى جهوده الأدبية، وكانت وحدها هي التى تستطيع قراءة خطه وما يدخله على كتابته من تغييرات وتصويبات، وكانت فى بعض الأحيان تعيد كتابة الأصول برمتها.

ولما شارف تولستوى الخمسين من عمره طرأ عليه تغير كبير، وقد كانت حياته حتى بلوغه هذه السن لامعة مشرقة، وسلسلة متتابعة من النجاح والتوفيق، وقد وصل إلى ذروة المكانة الأدبية، ووفق فى زواجه، وكان رب أسرة سعيدة تعيش فى رغد من العيش، ولكن ذلك كله لم يحل دون حدوث الأزمة النفسية والانقلاب الروحى، وقد علل الناقد الروسي مرزكوفسكى هذه الحالة النفسية بأنها نتيجة لهبوط الحيوية الذى أصاب تولستوى حينما شارف الخمسين من عمره، ولكن تتبع حياة تولستوى لا يجعل هذا التعليل مقبولا، فتولستوى كان منذ أوائل حياته وفى ريعان شبابه معنياً بمحاولة

فهم معنى الحياة، وسبر أعماق مشكلاتها الأخلاقية والدينية والاجتماعية، وقد كان هو نفسه صادقاً ودقيقاً فى وصف هذه الحالة التى استولت على نفسه صادقاً ودقيقاً فى وصف هذه الحالة التى استولت على نفسه حينما أشار إليها فى كتابه الاعتراف بقوله «لما أتممت كتابى «أنا كارنينا» بلغ بى اليأس أقصى حدوده، وصرت أدمن التفكير، وأطيل النظر فى الحالة الرهيبة المحتواة التى ألمت بنفسى، وكانت الأسئلة تنهال على تتكاثر حولى، وتطالبنى بالإجابة عليها، ومثلما تتجه الخطوط كلها إلى ناحية واحدة كذلك كانت الأسئلة غير المجاب عليها تتزاحم وتتدافع متجهة جميعها إلى نقطة سوداء، وبقيت مسمراً فى تلك النقطة وقد استولى على الخوف، واستقل مشاعرى الإحساس بالضعف، وكنت أشارف الخمسين من عمرى لما ساقتنى هذه الأسئلة إلى هذا الموقف الضنك غير المنتظر، وانتهيت إلى هذه النتيجة، وهى أننى ـ وأنا رجل سعيد موفور الصحة ـ لا أملك البقاء، ولا أقوى على العيش، وقد كنت من الناحية البدنية أستطيع أن أشتغل فى حصاد الدريس كما يستطيع أى مزارع، وكنت من الناحية العقلية أستطيع ممارسة الأعمال الفكرية أكثر اليوم دون أن

يعتريني كلال أو مرض، ولكني برغم ذلك كله انتهيت إلى هذه النتيجة وهي أنني لا أطيق البقاء، ولم أر أمامي إلا شيئاً واحداً وهو الموت، وكنت أرى كل شئ آخر ما خلاه باطلا ومحالا زائلا».

وخرج تولستوى من هذه الأزمة العنيفة وقد اقتنع الاقتناع كله بفكرة أن اليقين الحق يقوم على طاعة التعاليم الواردة بالإنجيل ولا سيما النصائح المذكورة بخطبة الجبل، ورأى أن طاعة هذه التعاليم قد تحققت في حياة الفلاحين الروسيين، فاتخذ حياتهم إنموذجاً يصوغ حياته على مثاله، فأهم عناصر الحياة هما العمل والحب، وإن على الإنسان أن يتحرى البساطة في حياته ويعمل، وأن يعطي أكثر مما يأخذ، وأن يسهم في عمل الخير دون أن يفكر فيما يعود عليه منه، وأن يجد السرور في مساعدة الناس وأداء الخدمات لهم، وفي هذه الحالة يجد السعادة ولا يخشى عادي الموت، وهذا هو حل مشكلة الحياة الذي انتهى إليه تولستوى واطمأن له ووقف حياته على إذاعته في كتبه.

ودفعه ذلك إلى إلتزام البساطة في حياته العملية، فأمسك عن أكل اللحوم، وعاش على الأطعمة النباتية مع

التخفف من الطعام جهد الطاقة، وصار يلبس ملابس الفلاحين ويتولى بنفسه تنظيم حجرته وتنظيفها، ويعمل في الحقول، ويقطع الأخشاب في الغابات، ويقضي جزءا من وقته كل يوم في الأعمال اليدوية، وأجدى على صحته الاعتدال والقصد في المأكل والمشرب ومباشرة العمل بغير انقطاع، ووجد مع ذلك متسعاً من الوقت للتأليف.

وحاول تولستوى أن يكون منطقياً مع نزعته الصوفية، فأراد التخلص من أملاكه، وهنا وقع التصادم بينه وبين أسرته، واتسعت هاوية الخلاف، وقد كانت زوجته مثالا للزوجة التى تحسن تدبير الشؤون المنزلية، وترعاه ما دام يعمل من أجل رفع شأن الأسرة وإعلاء مكانتها، ولكنها لم تستطع فهم تلك الأزمة النفسية التى انتابته وأسفرت عن رغبته فى التخلص من ثروته وكل ما يملك، وكان أشد ما يشغل بالها ويخيفها تعريض أولادها للفقر والحاجة، وقد خطرت لها فكرة الإستعانة عليه بالسلطات وإعلان أنه مختل العقل وغير أهل لإدارة شؤون أملاكه، ووقفت أكثرية أولاده فى صف والدتهم، واضطر تولستوى إلى قبول الحل الوسط، ففى سنة ١٨٨٨ تنازل عن أملاكه لأسرته، وظل مثابراً على

إخراج مؤلفات دينية النزعة، منها كتاب «ديانتى» وكتاب «ملكوت الله فى داخل نفسك».

وأحزنته أحوال روسيا السياسية وهمته، فقد قرر أعضاء اللجنة التنفيذية للثائرين الوسيين القضاء على القيصر الإسكندر الثانى، وقاموا بتنفيذ هذا القرار، وكان لمصرع القيصر وقع عظيم فى أنحاء روسيا هزها من أعماقها، واستنكر تولستوى الجريمة، ولكنه مع ذلك أشفق على الذين تولوا كبرها، وبادر إلى إرسال رسالة علنية للقيصر الإسكندر الثالث يرجوه فيها باسم السيد المسيح أن يصفح عن القتلة ويشير عليه بأن الطريق الوحيد لنجاة روسيا هو اتباع وصايا يسوع، وأن الطرق الأخرى مثل استعمال العنف والقسوة والارهاب والاضطهاد أو إدخال الاصلاحات التحريرية قد جربت ولم تحقق الغاية المرجوة، ولم يتلق تولستوى بطبيعة الحال رداً على هذه الرسالة، وأعدم القتلة.

وفى مؤلفات تولستوى التالية يكشف عن كراهته للعنف فى أى صورة من الصور سواء الصورة القانونية أو الصورة غير القانونية.

واشترك متطوعاً فى عملية إحصاء سكان روسيا سنة ١٨٨٢ ومكنه هذا الاشتراك من معرفة مدى تغلغل

الشقاء فى روسيا، وقد أوضح تولستوى ذلك فى كتابه القيم الذى جعل عنوانه «ماذا نصنع إذن؟» وهو تصوير مؤثر للشقاء والفقر والرذيلة السائدة فى المجتمع الروسى وبيان عجز وسائل البر والإحسان عن علاج هذه المساوئ الفاشية ومقاومة الشر وهو يسأل بعد ذلك ما هو العلاج الناجع لهذه الأحوال المعتلة؟ وهو يذكر في هذا الكتاب أن العامل الأمين الكادح المجد لا يجتنى ثمرة كده لأن نتاج عمله يبدد فى توفير أسباب الترف والاستمتاع لسادته المياسير، وتضيع جهود الجماعة سدى لأنها بدلا من أن تتجه إلى اعداد الضروريات تحول إلى تجهيز الكماليات التى لا تصلح إلا للقلة، والطبقة الميسورة تفسدها البطالة وهى فى دورها تنفث حولها سموم الفساد وتساعد على إيجاد جماعة الطفيليين الذين يعيشون عالة على غيرهم، وتحليل تولستوى فى هذا الكتاب للأحوال الاجتماعية التى كانت سائدة فى عصره غاية فى الدقة والإحكام والصراحة.

وضاق تولستوى بحياة المدن فلاذ بالريف واستأنف الحياة البسيطة التى يؤثرها ولم ينقطع عن التأليف، وأقبل على كتابة كتيبات رخيصة الثمن ليقرأها

أفراد الشعب، وذاعت هذه الكتيبات فى جميع أنحاء روسيا، ولقيت رواجاً عظيماً، وفى أثناء وعكة أصابته كتب تمثيليته المشهورة « قوة الظلام» وقد منعت إذاعتها الرقابة حيناً من الزمن.

وفى سنة ١٩٠١ رأت الكنيسة الروسية أن آراء تولستوى غير المحافظة تعارض تعاليمها، فأصدرت قرار الحرمان، وكا لهذا القرار تأثير مناقض لما أرادته الكنيسة، فقد زاد هذا القرار جمهرة الشعب تعلقاً بآراء تولستوى، وزاد مكانته فى نفوسهم علواً، وظل تولستوى يوالى إنتاجه الأدبى، ولم تكن السنوات الأخيرة من حياته سنوات راحة وهدوء، فقد آلمه سوء الأحوال فى بلاده وساءته الطرق العنيفة التى اتبعت فى إخماد ثورة سنة ١٩٠٥، وقد دفعه ذلك إلى أن يذيع فى الصحف الأوربية رسالته الحزينة التى بدأها بقوله «لا أستطيع التزام الصمت أكثر من ذلك» ونصح فيها القوم فى روسيا باتباع طريق الخلاص، وذلك بالامتناع عن الكراهة وحب الإنتقام، ولم يكن كذلك راضيا عن حياة أسرته وإسراف زوجته، وتاق إلى الفرار من الدار، ولكنه كان يتحاشى مع ذلك الإساءة إلى زوجته، ورأى أخيراً أنه لابد له من فترة هدوء قبل أن يستقبل النهاية

المحتومة، ففر من داره فى إحدى ليالى الخريف فى صحبة أحد المخلصين من أصدقائه، ولم تتحمل شيخوخته برودة الجو الممتلئ بالثلوج ووعثاء السفر، فاضطر إلى التوقف عن السير فى منزل ناظر إحدى محطات السكة الحديدية، وقضى نحبه فى هذا المنزل المتواضع يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٠، وكان لنعيه دوى هائل فى مختلف أنحاء كرتنا الأرضية، فقد كان الرجل من أوفى أصدقاء الإنسانية ومن أقدر الكتاب والمفكرين من الناحية الفنية.

رواية الحرب والسلم

رواية الحرب والسلم من الطرف الأدبية الفذة التى لا يعرف لها نظير فى الآداب العالمية برمتها، وهى فى رأى فريق من النقاد أعظم رواية أخرجت للناس، وقد عدها بعض النقاد ملحمة نثرية تقف إلى جانب إلياذة هومر الشعرية، وقد وازن النقادة البريطانى إدوارد جارنت بين إلياذة هومر ورواية الحرب والسلم ورأى أن الإلياذة تفوقها فى الجمال والتركيز، وأن رواية الحرب والسلم ترجع الإلياذة من ناحية السعة والشمول وتعقد الاهتمامات الإنسانية، وهى وإن خلت من أمثال أشيل

وهيكتور واليوسيس وأجاممنون ففيها حشد من الرجال والنسـاء العـاديين قـد أبدع تولسـتـوى في تصـوير ملامحهم وكشف دخائلهم واستبطان دوافعهم النفسية، ويستثنى جارنت شخصية القائد الروسى كوتوزوف، فهو يراه يمثل البطولة الروسية القومية وتظهر فيه كل الصفات التى جعلت روسيا عظيمة، فهو عنده من غير شك نظير لشخصيات هومر التى قدمها لنا فى الياذته.

ورواية الحرب والسلم أهم أعمال تولستوى الأدبية وأكبرهم حجماً وأوسعها نطاقاً، وهى مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، وهى على طولها وكثرة صفحاتها وامتداد آفاقها قوية السرد متدفقة الأسلوب، تشيع فى شتى نواحيها الحيوية الغامرة المكتسحة، وتتجلى فيها عبقرية تولستوى الفنان فى أقوى صورها، ولا يدرك قارئها الملل أو الفتور لأن فن تولستوى الساحر يؤكد العلاقة بين القارئ والشخصيات البارزة فى الرواية وينمى الألفة بيننا وبينهم حتى نصبح شركاء لهم فى مسراتهم وأحزانهم وقدرة تولستوى الخارقة فى استحضار المشاهد وتمثل المواقف تجعل قراءة هذه الرواية جزءاً من تجربة الإنسان التى لا يعفى عليها النسيان، فهى ليست رواية تقرأ كسائر الروايات ، وإنما هى فترة

يحياها الإنسان فى عالمها الضخم وبين أشخاصها الكثيرين النابهين منهم والمغمورين، وما أزال أذكر فى أثناء قراءة وصف تولستوى لمصرع الأمير أندريا بولكونسكى، وهو من أنبل الشخصيات البارزة فى هذه الرواية العظيمة وأحبها إلى قرائها، فقد شعرت بأنى فقدت صديقاً عزيزاً أحبه وأوثره وأعجب بنبل نفسه، قوة خلقه، وترفعه عن الدنايا والصغائر، وظللت أياماً لا أستطيع المضى فى متابعة القصة لما أصابنى من الحزن.

والعجيب من أمر هذه الرواية الطويلة بغير إملال أن الإنسان يأسف حينما ينتهى من قراءتها، ويشعر بأنه كان يود أن تطول هذه المتعة، فهى ليست من تلك الكتب التى يخيب أمل الإنسان فيها، ويأسف على الأيام التى أضاعها فى قراءتها، إنها مفخرة تولستوى، بل هى مفخرة الأدب الروسى خاصة والأدب العالمى عامة.

وقد حاول تولستوى فى هذه الرواية أن يصور عصراً من العصور الحافلة بالأحداث الجليلة من جميع نواحيه، وكانت حوادث هذا العصر مثيرة للعواطف والأهواء والخواطر والأفكار، وموضوعها ذلك الصراع

الرهيب بين الأمة الروسية ومطامع نابليون الذى رام أن يفرض سلطانه على أوروبا جميعها ويهزم جيش القيصر الإسكندر الأول ويستذل كبرياءه، ويخضع روسيا لسلطانه كما خضعت له ألمانيا والنمسا وأسبانيا وايطاليا.

وتنتهى حوادث هذه الرواية التاريخية بانسحاب نابليون من موسكو، بعد غزوه المشئوم لروسيا، وهى تصور لنا مأساة هذا الانسحاب وفظائعه وقسوته تصويراً ينفرنا من الحرب وأهوالها وما بها من غدر وخسة ووحشية، وهو يحدثنا فى ذلك حديث العارف الواثق المجرب الصريح الذى لا ينافق ولا يضلل ولا يخفى الحقائق، ولا يسمى الأشياء بغير أسمائها، وهو يرينا تلك الحوادث الجليلة خلال تأثيرها على عقول الأشخاص الذين اشتركوا فيها، وكانوا آلاتها المسخرة، وإن، كان بعض البارزين من هؤلاء الأشخاص عبثت بهم الأوهام، وخيلت لهم كواذب الظنون أنهم مالكو ناصية الحوادث ومسيرو حركة الأقدار!

وقد اختار تولستوى ثلاث أسر من الأسر الروسية العريقة اشتبكت مصائر أفرادها بحوادث هذه الحرب

وتقلباتها، فأصبحنا نرى بعيونهم ونسمع بآذانهم ونقاسمهم آلامهم وأشجانهم حتى صار من الصعب على قراء الرواية الاعتقاد بأنهم لم يروا معركة أسترلتز أو معركة بوروودينو الدامية وحريق موسكو وفظائع الانسحاب الفرنسى، ثم نشاهد الأمة التى عانت هذه الكارثة، وسالت دماء أبنائها وضحت بأنبل شبانها تبرأ من جروحها وتسترد الصحة والعافية وتعود فيها الحياة إلى سيرتها، وتجرى الأمور فى مجاريها العادية.

ويدور محور القصة حول هذه الأسرات الثلاث، وهى أسرة بولكونسكى وأسرة روستوف وأسرة بيير بيزوكو.

والرواية كما قدمت حافلة بالشخصيات الكبيرةوالصغيرة والسامية المنيفة والحقيرة الضئيلة، ولكن فن تولستوى العظيم يسوى بينها فى دقة الوصف وبراعة التحليل.

ويجتذب اهتمامنا بوجه خاص ثلاثة من أبطال الرواية، فى طليعتهم الأمير أندريه بولكونسكى، وهو رجل من ذوى الأخطار ومن الشخصيات التى لا تنسى،

وهو ابن قائد بارز له ماض حافل فى تاريخ روسيا الحربى، وهو أرستقراطى النزعة جميل الصورة مترفع متأبه، يشعر بأنه أسمى من حوله خلقاً وعقلاً، تنم حركاته على احتقاره للناس واستصغاره لشأنهم، ولكن هذا الرجل الأصيد المتكبر يحمل برغم ذلك قلباً كريماً رقيقاً قوى العواطف عميقها، وهو يحب والده العجوز وشقيقته الاميرة ماريا وصديقه الوحيد بيير بيزوكو.

وبيير بيزوكو هذا شاب ضخم الجثة ينقصه الصقل ولكن الأمير أندريه بطبيعته الملهمة النفاذة، وبصيرته التى تخترق الأغشية والحجب يرى وراء عيوب بيير البادية للعيان قلباً نقياً ونفساً صافية مخلصة، فيختصه بحبه وتقديره، ويصطفيه ويقربه من نفسه، وممن يضمر لهم الأمير أندريا الاحتقار زوجته الأميرة ليزا.

ويلتحق الأمير أندريا بخدمة الجيش، ويصبح ضابط أركان حرب لكوتوزوف، ويمكن ذلك تولستوى من أن يرينا إدارة الحرب من الداخل، وطريقة القواد الحربيين فى وضع الخطط.

والصفة الغالبة على طباع الأمير أندريه هى الطموح وطلب المجد، وهو يحضر معركة أوسترلتز،

ويخوض غمارها، وتتجلى فيها شجاعته وثباته ورزانته، وتكسبه هذه الصفات الثناء والتقدير، ولكن هذه التجربة تغير نظرته إلى الحياة، فهو يرى بعينيه أن الشجاع البهمة يندر أن يثاب لشجاعته. بل الأغلب أن يهضم حقه، وينكر فضله، ويوجه إليه اللوم والتأنيب، ففى أثناء المناوشات التى حدثت عند مدينة إمز كان الذى جنب الجيش الهزيمة ضابط من ضباط المدفعية مجهول الشأن اسمه توشن، فقد ظلت مدفعيته تطلق نيرانها على الفرنسيين حتى تمكنت مؤخرة الجيش الروسى من الارتداد، وأنقذ الجيش من الإبادة والدمار، واختلط الأمر على رؤساء توشن، وعجزوا عن إدراك ما تم على يديه، فهموا بتعنيفه وزجره لأنه فقد بعض المدافع فى خلال دفاعه المجيد، فساء ذلك الأمير أندريا، وانبرى للدفاع عن الرجل والإشادة بموقفه، وأعلن أنه أنقذ الجيش ورد عنه الهزيمة، ولكن رؤساءه استكثروا ذلك على توشن البطل المتواضع الذى لم يدع فخراً ولم يطلب لنفسه أجراً، وهكذا يهمل ذكر بطل الموقف ويطوى أمره، ويقنع الرجل من الغنيمة بالإياب.

وفى معركة أوسترلتز أقتحمت صفوف الجيش الروسى، ولاذت الجنود بالفرار، عبثاً حاول الأمير

أندريا الذى كـان يحـمل العلم أن يمنع تيـار الهـرب، وأصابته رصاصة فخر صريعاً فاقد الوعى، وقد شعر وهو ينحدر فى غيبوبة فقدان الوعى بتفاهة ذلك المجد الحربى الذى كان يسعى إليه ويغنى نفسه فى طلابه، وكأنما كشف له شعوره باقتراب الموت حقائق الحياة التى لم يراها من قبل، ويصف تولستوى هذه الحالة التى ألمت بالأمير أندريا بقوله «فتح عينيه وهو يؤمل أن يرى كيف انتهت المعركة بين المدفعى الروسى والفرنسى وكان يتلهف على معرفة مصير المدفعى الأحمر الشعر وهل غاله الموت أو كتبت له النجاة وهل سلم المدفع أو استولى عليه الفرنسيون، ولكنه لم يستطع أن يرى شيئاً، ولم ير فوقه سوى السماء تلك السماء العالية ولم تكن صافية الأديم ولكنها برغم ذلك مفرطة فى العلو وكانت تمر بها متمهلة سحب شهب خفيفة، وقد ساد الصمت وعم الهدوء، وقال الأمير أندريا لنفسه «ما أشد اختلاف هذه الحالة عما كنت فيه وأنا منطلق، فلم تكن الحالة كذلك ونحن جميعاً منطلقون صائحين محاربين.. وكيف لم أر قط هذه السماء الرفيعة قبل ذلك؟ وما أكثر سرورى لأننى عرفت ذلك أخيراً، نعم! كل شئ فارغ ومتاع الغرور سوى هذه السماوات غير المتناهية، لا

شئ. لا شئ على الاطلاق غيرها، وحتى هذه لا شئ سوى صمت وهدوء! والحمد لله!».

ويثوب إلى الأمير أندريه وعيه فيرى نابليون واقفاً إلى جوار فراشه وهو ينظر إليه نظرات اعجاب، ويظنه نابليون ميتاً فيهمهم قائلاً «ميتة نبيلة» ولكن سرعان ما يدرك أنه لا يزال حياً فيقدم له التهنئة لشجاعته الفائقة وحسن بلائه، ولكن الأمير أندريه الذى أدرك حقيقة المجد الحربى الأجوف لا يحفل بهذا الثناء من الرجل العظيم الذى كان يعجب به ويكبره بالأمس.

ويعود الأمير أندريه إلى أسرته التى خالته فى عداد الموتى فيجد زوجته قد ولدت طفلاً وماتت فى المخاض، وتسر الأسرة بمقدمه بعد أن غلب عليها الحزن والاكتئاب، وقد تركت تجربة الحرب فى نفسه آثاراً قوية وغيرت من حالته النفسية فازداد رقة نفس ورهافة حس، واشتمل عليه حزن صامت ولاج، وصار يعتقد أن حياته قد انتهت، وأنه يعيش عبثاً، لغير غاية معلومة ولا هدف مقصود، وفى هذه الفترة الكامدة والأزمة النفسية الحازبة يلقى الفتاة الفاتنة نتاشا، وهى من أجمل بطلات الرواية، فهى فرحة الحياة وبهجتها

مجسمة، وهى بسمة مشرقة فى فم الزمان، فتملك لب الأمير أندريا وتأخذ بمجامع قلبه، ويعاوده الاهتمام بالحياة ويغمر السرور قلبه، وتصبح نتاشا خطيبته، ولكن معارضة الأسرة تؤخر الزواج.

ويسافر الأمير أندريه إلى الخارج، ويعرض لنتاشا شاب وسيم الطلعة مزهو بنفسه لا يعرف التردد ولا الاحجام فى غزو قلوب النساء والتغرير بهن، وهو مع ذلك مجوف مثل أغلب الرجال من هذا الطراز، وتؤخذ نتاشا بتهاويل جماله وتغلب على أمرها فتكتب رسالة إلى الأمير أندريا لفسخ خطوبته ونكث عهده، وترتضى الهرب مع هذا الشاب التافه المفتون، واسمه أناتول كوارجين ولكن تحبط الخطة فى اللحظة الخيرة وتمنعها أسرتها من ذلك، ثم تنجلى غمرة نتاشا وتستفيق من هذه الغاشية، وتدرك أن هذا الشاب لا يصلح أن يكون لها نداً، وأنها أسرفت فى الإساءة إلى الرجل الأبى الكبير الروح الأمير أندريا، ويشتد بها الندم وتبكيت الضمير حتى تهتم بالإنتحار، ويقف الأمير أندريا على القصة كاملة مفصلة فتصاب كبرياؤه ويجرح إباؤه، ولا تمكنه طبيعته الروحية ونفسه السامية من فهم هذا اللون من ألوان الفتنة والإغراء الذى أجاد تولستوى وصف

أعـراضـه وتـحليل أجـزائه إجـادة العليـم بأهواء النفـوس ونزعات الغرائز.

ويرفض الأمير أندريا أن يسامح نتاشـا، ويأبى أن يغتفر لها ذنبها، ويعاوده التبرم بالحياة والشعور بعبث الأقـدار، ويبـحث عن غـريمه كـوراجين فـلا يقف لـه على أثر، ويعـود وهو فى هذه الحـالة النفسيـة القلقة الناقمـة إلى خـدمـة الجـيش، ويشـتـرك فـى مـعـركـة بوروديـنو ويصـاب فـيـهـا بجـرح شـديد، ولم يكن الجـرح في هذه المرة من الجـروح السليمـة العـاقبـة. وإنما كـان جـرحـاً خطيراً مميتاً، ولكن قبل أن يطويه الموت يهيىء له القدر بعض لحظات من السـعـادة والمتـعـة، وذلك أن أسـرة روسـتوف وهـى تحـاول الفـرار من مـوسـكو التى اقتربت منها الجنود الفرنسية تضحى بما تملك من أثاث وغيره لانقـاذ جـرحى الحـرب الروسـيين، وكـان مـن بين هؤلاء الجـرحى المجهولين الأمير أندريا.

ويتـلاقي الحـبيبـان السابقان، ويبدع تولستوى فى وصف هذا التلاقي الأخير المؤثر المحزن، ويتـجدد الأمل فى شفاء الأميـر أندريا واندمـال جرحـه، وقـد صـفـا الود بينه وبين نتاشـا، وعـادا إلـى سـابق عـهـدهـمـا، ولكنه أمل كاذب وبرق خلب يتلوه الموت الصـادع الفاجع المحتوم.

والأمير أندريا من أبطال تولستوى الذين يلقون الموت فى استسلام وقور وهدوء نبيل، فالحياة فى نظره لا تستحق أن يؤمل فيها ويؤسى لفقدها، وهو إن كان يتعلق بها فليس ذلك لأنه يخشى الموت، وإنما لأن الحياة معناها نتاشا، وهى الفتنة والسحر والبهجة والإشراق، ويصف لنا تولستوى شعور الأمير أندريا بالموت وقد أخذ يدب في أوصاله وتلفه ظلمته وصفاً فلسفياً نفسياً لا يحسنه غيره.

ويملأ الحزن لموته قلب شقيقته ماريا وقلب نتاشا، ويرينا تولستوى فى موت الأمير أندريا وهو على أبواب الحب والسعادة مأساة الحرب وما تدفعه لها الإنسانية من غالى الثمن وما تقدمه فى سبيلها من نفيس التضحيات.

والبطل الثانى فى الرواية بيير بيزوكو، وهو أعرق فى روسيته من الأمير أندريا الذى صقلته الحضاره الأوروبية، ويختلف بيير عن صديقه أندريا فى أشياء كثيرة، فهو رجل تنقصه الرشاقة واللباقة والصقل وقوة الإرادة، ويعجب الإنسان فى بادئ الأمر من هذه الصداقة التى نشأت بينهما، ولكن فى سياق الرواية تتكشف لنا طبيعة بيير الحقيقية الحرة النقية البريئة من

التكلف والعامرة بالإخلاص والود الصادق والحب العميق والوفاء النادر، وهو رجل يحسن فهم من حوله، وإن كان من حوله لا يحسنون فهمه،وهو ينطوى لنتاشا على الحب وإن كان يكتم هذا الحب ويبذل جهده ليصلح ما بينها وبين صديقه الأمير أندريا.

وهو مثل الأمير أندريا تتأثر حياته بالحرب، ولكن بطريقة أخرى فهو لا يلتحق بالخدمة العسكرية مثل الأمير أندريا، ولا يجرح، ولكنه يرى جوانب أخرى من المأساة العظيمة، فهو يحضر حريق موسكو، ويقع فى أسر الفرنسيين، ويحملونه على السير معهم فى تقهقرهم الرهيب، ويلمس عن قرب الشقاء الذى يعانيه الأفراد الماديون فى هذا الإنسحاب وكيف يحتملون الآلام الموجعة فى جلد وصبر فتنتشله هذه التجربه من وهدة اليأس المظلم، وتبصره بمعنى الحياة، وأشد ما يؤثر فى نفسه سلوك الجندى المزارع بلاتون كاراتايف، وهو على بساطته وخفاء شأنه من شخصيات تولستوى البارزة الممتازة، ولم يكن لهذا الرجل نصيب من الذكاء والألمعية والخيال، ولكنه كان موفور الحظ من سماحة النفس وطيبة القلب والحب الصافى الخالص لجميع الناس، وقد كان مصيره محزناً، لأن الفرنسيين كانوا

يطلقون النار على الأسرى الروسيين الذين يعجزون عن مسايرة الجيش المنسحب.

ويرى بيير صاحبه وقد وهنت قوته ونال منه الإعياء فلا يطيق أن يتصور العقوبة التى ستحل به، وفى ذات صباح يرى بلاتون وقد عجز عن السير، وجلس في ظل شجره وقد بدت على وجهه أمارات السرور والارتياح والطمأنينة وقبول ما تأتى به الأقدار، ويسمع بيير بعد ذلك دوى طلقات الرصاص فيعرف أن هذا الرجل الصالح قد لقى حتفه، ويحز فى نفسه مصرع هذه النفس الزكية النقية التى لم تقارف الإثم ولم تعرف الإساءة.

وتترك شخصية بالتون هذا المزارع المغمور أثراً لا يزول فى نفس بيير، ويتخذ تولستوى من مصير بلاتون وسيلة ليرينا تفاهة الحرب وعسفها، فمن أكبر الكبائر وأفظع المفظعات قتل مثل هذه النفس المحببة الجميلة البريئة من العيوب والذنوب.

وكان بيير كلما تكاثرت آلامه استعذب الصبر ووجد فيه راحة وسلوى، وهو يخرج من معمعان الحرب رجلا قد صهرته الآلام وتمرس بالآفات حتى كشف

لبصيرته سر الحياة الذى تخفيه عنا طراوة العيش والتقلب فى النعيم.

ويصف تولستوى تقهقر الجيش الفرنسى وصفاً رائعاً، ويصف بطولة الجيش الروسى الذى كان ينقص جنوده الكساء والغذاء ولكنهم كانوا مع ذلك يحاربون بروح قوية ونفوس صابرة محتسبة يهون عليها احتمال الأهوال فى سبيل الدفاع عن الأوطان.

والأميرة مريا هى البطلة الأولى فى الرواية، وهى طراز نبيل من السيدات العظيمات اللب الكبيرات القلب المخلصات الصالحات، وقد صورها تولستوى بالصورة التى تخيلها لوالدته، وهى لا تمتاز بالذكاء والفهم ويغلب على طبيعتها الحزن، ولكن جمال نفسها الروحى يحمل على الإعجاب بها والحب لها، وهى تعجب بأخيها الأمير أندريا وتحبه وتكبره وينال منها مصرعه، وتحب والدها وتحتمل نزوات شذوذه وبدوات طغيانه واستبداده، وتظل إلى النهاية تحمل له الحب، وتدين له بالطاعة، ولا تضيق بانحرافات شيخوخته، ولا تضمر سوى الحب لزوجة أخيها الأميرة ليزا برغم أنانية ليزا وفرط إعجابها بنفسها وإدلالها بجمالها.

والبطلة الثانية هى نتاشا روستوف، وهى أشد شخصيات الرواية جاذبية وفتنة، وقد صورها تولستوى على مثال حى وهذا المثال هو شقيقة زوجته وتمتاز بقدرتها على جعل من حولها يتعلقون بها، فهى معبودة والديها وإخوتها وكل من يتصل بأسرتها أو يزور دارها، وهى متفائلة بطبيعتها مقبلة على الحياة ترى فى الناس الجوانب الخيرة وتحب الحياة حباً جماً، فهى التى تبتكر للجماعة ضروب الألعاب وألوان اللهو، وموجز القول أن ذلك العهد السحرى عهد ما بين الطفولة والبلوغ حيث تكون الدنيا فى نظر الإنسان جديدة نضرة لم يتمثل فى صورة أجمل من الصورة التى تبدى بها فى شخصية نتاشا.

وهذا السحرهو ملك لب الأمير أندريا الرزين النبيل، وفى الأحداث المروعة التى تعج بها الرواية، وبين غبار الحروب والدمار المسفوكة تشرق نتاشا كالربيع الطلق والنور المضى فى الظلام.

وتشعر نتاشا بالعزلة والوحدة بعد موت الأمير أندريا، ويذوى عودها، ويغيض سرورها، وتمضى الساعات الطويلة فى صمت مؤلم ناظرة إلى المكان الذى

كان يشغله الأمير أندريا، وألح عليها السقم حتى فقدت الأسرة الأمل في شفائها وإنقاذ حياتها.

وفي هذه الفترة ترد إلى الأسرة أنباء محزنة، وهي مصرع أخيها الأصغر بيتيا في المعارك الأخيرة، وتكاد والدتها تجن من الحزن، وتلجأ إلى نتاشا فهي وحدها التي تستطيع أن تدخل العزاء على قلب والدتها وتهون عليها الخطب.

وتبذل نتاشا جهدها لتسلية والدتها، وفي هذه المحاولة تعود إلى سيرتها الأولى، فهي تعيش بالعواطف القوية والنزعات الكريمة التي كادت تحطمها وتقضي عليها، وقد تغيرت كثيراً، فحينما تلقى بيير بعد غيابه الطويل وعودته من الأسر يكاد لا يعرفها ولا يستطيع أن يلمح في وجهها الشاحب النحيل وجه نتاشا المحبوبة المعبودة الممتلئة بالحياة.

ويتقدم بيير لخطوبتها، وتوافق نتاشا وأسرتها على هذه الخطوبة، ويعود إلى نتاشا إشراقها وبهجتها، ويسوء ذلك حيناً من الزمن الأميرة ماريا، لأنها ترى في ذلك حنثاً بعهد أخيها الأمير أندريا ونسياناً لذكراه.

وتتزوج نتاشا من بيير، ويرينا تولستوى نتاشا أماً لأربعة أطفال، وقد أصبحت ربة منزل مقتصدة مدبرة معنية أشد العناية بأطفالها وأسرتها،وقد قصرت اهتمامها على أفراد أسرتها... وقد نستدل من ذلك على رأى تولستوى فى المرأة بوجه عام، فهو لا يرى لها وجوداً فردياً، وليست المرأة فى رأيه غاية فى نفسها، وإنما هى وسيلة للنوع، وربما كان إمامه فى هذه الناحية الفيلسوف شوبنهاور الذى كان تولستوى يقرأ كتبه ويبدى اعجابه به.

ولا يتسع المجال للحديث على سائر الشخصيات التى تعج بها الرواية، وقد أجاد تولستوى تصوير الشخصيات الثانوية والأقل أهمية فى الرواية إجادته فى تصوير الشخصيات الهامة البارزة فى الرواية، وقد قدم لنا صورة واضحة ممتعة لأفراد أسرة روستوف، والغلام الناشئ بيتيا روستوف الذى قتل فى المعركة لا يقل إبداعاً فى تصويره عن نتاشا، فهو قوى العواطف شديد التحمس فى وطنيته ويميل إلى البطولة ويسلك سلوك الأبطال، ويصر وهو فى السادسة عشرة من عمره على الاشتراك فى الجيش للدفاع عن وطنه، ويجتهد أصدقاء أخيه تجنيبه مواطن الخطر، ولكن

شجاعته تدفعه إلى اقتحام الأخطار، ويلقى منيته مستهدفاً للخطر فى أحد المواقف الحرجة.

وضابط المدفعية الروسى توشن يمثل فى رأى تولستوى طراز البطولة الروسية الصادقة، فهو البساطة والتواضع مجسمين، وشجاعته الفائقة ليست شجاعة دموية مفترسة، وإنما شجاعة بالقلب العاطف الرقيق.

ومسرح الرواية واسع فسيح، والممثلون فيها كثيرون بينهم عاهل روسيا القيصر الإسكندر الأول ونابليون والقائد الروسى كوتوزوف وعدد كبير من القواد والوزراء والأعيان، وينتقل بنا تولستوى ما بين صالونات بطرسبرج وقصور موسكو إلى ميادين الحرب وثكنات الجند، ومن العواصم الزاهرة إلى الضواحى والأقاليم، وكل هذه الحوادث المتوالية والصور المتلاحقة تدور حول أشخاص الأسر الثلاث، ولكن البطل الحقيقى للقصة هو روسيا فى صراعها الدامى ضد غارة الأجنبى على أرضها.

والفكرة الفلسفية الكبرى التى تطالعنا من وراء سطور الرواية وحوادثها المنوعة هى العلاقة بين رجل الأقدار والقوى التى يظن نفسه قادراً على تصريفها

وتوجيهها الوجهة التي يريدها فمن نابليون ومن القيصر الإسكندر؟ أنهما ألاعيب في يد القدر، وتولستوى يرى أن الإرادة البشرية ليس لها أثر يذكر في توجيه الحوادث ومصائر الإنسانية وسير الحضارة، ومن ثم سخريته في هذه الرواية بنابليون الذى كان يظن نفسه سيد الأقدار، واعجابه العميق بالقائد الروسى كوتوزوف الذى كان يشعر بأنه مسير لا مخير.

ويحاول تولستوى تدعيم هذه الفكرة الفلسفية التى تقوم عليها روايته التاريخية بأن يرينا سخافة قواد نابليون البارزين المعروفين، وتفاهة تفكيرهم وفرط اغترارهم بشاراتهم اللامعة وكساويهم العسكرية الفخمة، ولا يستثنى من احتقاره القواد الروسيين.

وهو يخص باعجابه كوتوزوف لأن كان مثله قدرياً، وكان شأنه أن يرصد الحوادث، ويترقب السوانح، ويستسلم للأقدار، ولم تفسد هذه الفكرة الفلسفية على تولستوى فنه، لأنه كان فناناً أصيلاً قبل أن يكون مفكراً فلسفياً .. ولذلك استطاع أن يمزج الفكرة الفلسفية بالصورة الفنية للرواية مزجاً فنياً رائعاً، وقصر خاتمة الرواية على شرح مذهبه فى فلسفة التاريخ شرحاً

وافياً، وقد عنى أخيراً بدراسة هذه المؤخرة الفلسفية دراسة عميقة جدية أحد المفكرين العصريين المحيدين وهو الأستاذ برلين، وضمن خلاصة درسه لها كتاباً قيماً ظهر فى أواخر سنة ١٩٥٣ وأسماه هذاالاسم الذى يبدو غريباً وهو «القنفد والثعلب» وقد أظهر فيه تأثر تولستوى بفلسفة المفكر الفرنسى دى مايستر.

مختارات من رواية الحرب والسلم

فى الفصل الحادى عشر من الجزء الأول (ماقبل تلست) يصف لنا وداع الأمير أندريا الذي ذهب إلى حجرة والده الأمير العجوز، فقد أرسل إليه قائلاً إنه يود أن يتحدث معه منفرداً.

ووجد الأمير أندريا عند دخوله الحجرة أباه جالساً إلى منضدة الكتابة وقد وضع على عينيه نظارة وارتدى طيلساناً أبيض اللون، وكان من عادته ألا يسمح لأحد أن يراه وقال «إذن أنت راحل» وعاد إلى الكتابة.

«نعم، لقد جئت لأودعكم»

فقدم خده لابنه قائلا «قبلنى، وأشكرك وأكرر شكرى لك».

«من أجل ماذا تشكرني؟

«من أجل عدم بقائك في دارك متعلقاً بخذوط مئزر زوجتك، فالخدمة العسكرية مفضلة على كل شئ - ومن أجل ذلك أشكرك».

وعاد ثانية إلى الكتابة، ولكنه كان مهتاج الأعصاب إلى حد أن الريشة أحدثت صريراً وتناثر المداد في كل ناحية «إذا كنت تريد أن تقول شيئاً فإني مصغ إليك».

«زوجتي – إني غير مرتاح لتركها في هذه الحالة، فهي عبء في يديك».

«وماذا تريد أن تقول غير ذلك؟ قل شيئاً أكثر إصابة للهدف من ذلك».

«عندما يقترب الوقت أرسل إلى موسكو في طلب طبيب، وليحضر هنا في الوقت المناسب..».

فنظر الأب العجوز إلى ابنه نظرة صارمة مبدياً دهشته:

«بطبيعة الحال أعرف أن لا يكن عمل شئ إذا ثارت الطبيعة على العلم». واسترسل أندريا قائلا وقد

ظهر عليه التأثر «وإني أعرف أنه من بين ألف حالة من أمثال هذه الحالات ربما لا يحدث خطأ إلا في حالة واحدة، ولكن هذا هو ما توهمته وما خطر بفكري كذلك، ولقد تقسمتها الهموم نتيجة لحلم رأته في منامها».

فتمتم العجوز قائلا «حسن، سأنظر في ذلك» ووقع باسمه ملوحاً بيده عن قصد، وأضاف قائلاً وقد علت وجهه ابتسامة «أنه أمر بغيض».

«ما هو هذا الأمر البغيض؟»

فقال العجوز في غير مواربة «زوجتك».

«إني لم أفهم ما تريد».

«إنهن كلهن من هذا الطراز يا ولدي، ولا نستطيع أن نمسك عن الزواج، فلا تخف، فإني لن أذكر شيئاً لأي إنسان ولكنك تعرف ما أعرف، وهذا هو الحق» وأمسكت أصابعه الناحلة المعروقة بيد ابنه وهزتها في شئ من العنف بينما كانت عيناه كأنما تحاولان كشف داخلته.

وكان جواب الأمير أندريا على ذلك أن تنهد ـ وهو اعتراف بغير كلام.

وطوى الأمير العجوز الرسائل فى غمضة عين وختمها.

وقال فى إيجاز «حسن، لا حيلة لنا فى ذلك، وهى جد حسناء، فلا يشق عليك الأمر وسنعمل كل ما نستطيع».

وأمسك أندريا عن الكلام، وكان مكروباً ولكنه كان فى الوقت نفسه سعيداً لأن والده قد أدرك ما يريد.

«لا تشغل بالك بها، وسنعمل كل ما يمكننا، وخذ الآن هذه الرسالة لميشيل إلا ريو نوفتش، لقد طلبت منه أن يتيح لك فرصاً حسنة وأن لا يبقيك معه زمناً طويلاً، وعليك أن تخبره أننى أذكره بالخير والتقدير، واكتب لى كيف يتلقاك، فإذا رضيت فابق معه، وابذل ما فى وسعك، وإذا لم ترض فاتركه فإن ابن نيقولا بولكونسكى لا يمكن أن يظل مع رئيس لا يرتاح إلى العمل معه، ادن منى».

وكان يتحدث فى سرعة شديدة ويبتلع أكثر الكلمات، ولكن ابنه فهم عنه، وتبعه إلى المكتب، وفتحه العجوز وأخرج منه مفكرة مكتوبة بخط دقيق ولكنه واضح وقال له «من الأرجح أننى سأموت قبلك، وهذه

مذكرة ترسل للإمبراطور بعد موتى، وهذه رسالة وهذا إذن صرف، وهو مكافأة أريد تقديمها لمن يكتب كتباً عن غزوات سواروف فارسلهما إلى الأكاديمية، وقد كتبت بعض مذكرات ـ تستطيع أن تقرأها بعد رحيلى من الدنيا، وقد تفيد منها».

وشعر ندريا بأنه من غير اللائق أن يوجه إلى والده كلمات تنطوى على الأمل فى حياة طويلة وعمر مديد له، فاكتفى بأن يقول «ستنفذ رغباتك جميعها بلا أدنى ريب».

فقال الأمير العجوز وقد أعطى يده لابنه ليقبلها «والآن استودعك الله، ولتذكر يا أمير أندريا أنه لو اختطفك الموت فإن قلبى العجوز أن ينفطر» ـ ثم نظر فى وجهه نظره شاملة وأضاف قائلا «وإذا بلغنى أن ابن نيقولا بولكونسكى قد قصر فى القيام بواجبه فإنى سيعرونى الخجل ويجللنى العار» وقد نطق بالكلمات الأخيرة هامساً.

فقال الأمير أندريا مبتسماً «كان يمكن أن تجنب نفسك مشقة الافضاء إلى بذلك، وإنى كذلك لى طلب أتقدم به إليك، فاذا سقطت قتيلا وولد لى ولد فاحتفظ به

عندك، والتمس منك أن تنشئه هنا».

«ولا أجعله فى رعاية زوجتك؟».

وحاول أن يضحك ولكن لم يكن الأمر أكثر من هزة عصبية حركت ذقنه ودفع ابنه من الحجرة قائلاً «اذهب الآن».

وفى الفصل الثلاثين يصف لنا تولستوى حالة الأمير أندريا بعد إصابته فى المعركة قائلاً «كان الأمير أندريا راقداً طوال ذلك الوقت فى البقعة نفسها فوق تل براتزن ممسكاً بيده قطعة من قماش العلم والدم يسيل منه وهو يرسل فى غير وعى تأوهات ضعيفة شاكية مثل الأطفال، وحينما اقترب المساء أمسك عن التأوه وظل راقداً فاقد الإحساس كل الفقد، وفجأة فتح عينيه، ولم يكن عنده فكرة عن مرور الزمن، وشعر بأنه حى وبألم حاد من جراء جرح ملتهب فى رأسه، وكانت أول فكرة خطرت له هى:

«ما هذه السماء اللانهائية التى رأيتها فى هذا الصباح ولم أرها من قبل؟ وهذا الألم كذلك جديد لم أجربه من قبل! إنى لم أعرف شيئاً ـ لم أعرف شيئاً مطلقاً حتى الآن، ولكن أين أنا؟».

وأصغى، وسمع صهيل عدة خيول وأصوات بشر يقتربون منه، وكانوا يتحدثون باللغة الفرنسية، فلم يحول رأسه، وظل راقداً ينظر إلى السماء عالية فوقه، وكان يرى زرقتها التى لا تسير أعماقها عالية فوقه، وكان يرى زرقتها التى لا تسبر أعماقها من بين السحب العارضة، وكان القادمون على الخيل نابليون واثنين من ضباط أركان الحرب، وكان نابليون قد طاف بميدان المعركة جميعه وأصدر أوامره لمد المدفعية التى كانت تطلق النيران على الخندق عند أوجست بالمساعدة، وكان الآن يفحص الجرحى والقتلى الذين تركوا فى الميدان، وقال حينما رأى الأرض وعنقه أدكن وذرعاه قد تصلبتا تصلب الموت «رجال حسان !».

وقال أحد ضباط أركان الحرب وقد أرسلته المدفعية الموجهة إلى أوجست «إن ذخيرة مدافع الميدان قاربت النفاد يا سيدى».

فأصدر نابليون أمره وقد تقدم خطوات قليلة قائلا «احضر الاحتياطى، ووقف إلى جانب الأمير أندريا الذى كان لا يزال ممسكاً بسارية العلم المكسورة ذلك العلم الذى استولى عليه الفرنسيون ليكون دليلاً على الانتصار.

وهتف الإمبراطور قائلا «ميتة مجيدة».

وأدرك الأمير أندريا أن المتحدث هو نابليون، وأنه يتحدث عنه، ولكن الكلمات دوت فى أذنيه دون أن يحفل بها ونسيها فى الحال، وكان رأسه ملتهباً، وكانت قواه فى هبوط من جراء الدم المتدفق منه ولم يكن يرى سوى الزرقة الأبدية البعيدة، وقد عرف نابليون ــ الذى كان بطلاً في رأيه ــ ولكنه فى تلك اللحظة رآه صغيراً. فما أضأل هذا البطل وما أقل شأنه بالقياس إلى تلك الرسالة التى جاءت إلى روحه من السماء التى لا تقاس أبعادها، فما يقال ومهما يكن شأن الذى يدنو منه فإن ذلك كله أمور لا يؤبه لها، ولكن سره وقوفهم، لأنه كان يشعر شعوراً غامضاً بأنهم سيعينونه على العودة إلى الحياة تلك الحياة التى بدت له جديرةبأن يحياها ما دام قد بدأ يفهمها، واستجمع قوته ليتمكن من الحركة وليرسل صوتاً، وحرك قدماً وآن أنيناً واهياً.

فصاح نابليون قائلاً «إنه ليس ميتاً! احملوه إلى نقالة الجرحى».

وركب الإمبراطور ليلقى المارشال لان الذى ابتسم ورفع قبعته وهنأ الإمبراطور على الانتصار.

ولم يتذكر الأمير أندريا سوى القليل بعد ذلك، فالألم الذى سببه له حمله إلى النقالة واهتزازها وجس الجرح جعله يعود إلى فقدان الوعى، ولم يثب إلى رشده إلا فى المساء وهو محمول إلى المستشفى مع الكثيرين من الروسيين الجرحى أو الأسرى، وفى أثناء الانتقال أفاق ثانية واستطاع أن يدير طرفه فيما حوله، بل استطاع أن يتحدث، وكانت أولى الكلمات التى سمعها صادرة من ضابط فرنسى وكل إليه أمر الإشراف على الجرحى:

«علينا أن نقف هنا، فإن الأمبراطور سيمر بنا، ولابد أن نمتعه بالنظر إلى هؤلاء السادة».

فقال آخر «الأسرى كثيرون فى هذه المرة ـ جزء كبير من الجيش الروسى، لابد أنه عنده ما يكفى منه».

فقال المتحدث الأول مشيراً إلى ضابط روسى جريح يرتدى سترة أحد خيالة الحرس «ولكن هذا كان كما يقولون رئيس حرس الإمبراطور الإسكندر جميعهم»

فعرف بولكونسكى الأمير ريبنين الذى لقيه فى أحد مجتمعات بطرسبرج، وكان بجانبه ضابط شاب يناهز عمره التاسعة عشرة جريحاً.

وجاء نابليون يخب به جواده وأدنى عنان جواده على مقربه منهما وسأل وقد رأى الجرحى «من أسمى هؤلاء رتبة؟»

فقيل له أنه الأميرالاى الأمير ريبنين

«أنت قائد الحرس الإمبراطورى؟»

«إنى قائد فرقة فحسب».

«لقد قامت فرقتك بواجبها خير قيام»

فأجاب ريبنين «إن الثناء من القائد العظيم هو خير ما يثاب به الجندى»

فقال نابليون «إنى أقدمه بارتياح عظيم، ومن هذا الشاب الذى معك؟»

فذكر له ريبنين اسم العقيد سشنلين، فنظر إليه نابليون وقد علت وجهه ابتسامة:

«أنه جد صغير للمغامرة فى مثل هذه الأخطار».

فتمتم سشنلين قائلا بصوت مختنق «إن الشباب لا يحول دون الشجاعة».

«لقد أحسنت الجواب، وستفعل ما تقول»

ووضع الأمير أندريا كذلك فى الصف الأول إظهاراً لعظمة الإنتصار واجتذب نظر الإمبراطور، وتذكر نابليون أن رآه وهو راقد فى الميدان.

«وأنت أيها الشاب الشهم كيف حالك؟».

فرمقه بولكونسكى بعينيه ولكنه لم يتكلم، وقبل ذلك بخمس دقائق نطق بكلمات قليلة وجهها إلى الرجال الذين كانوا يحملونه، ولكن الآن اكتفى بالنظر إلى الإمبراطور ولزم الصمت! فبعد كل شئ ما قيمة اهتمامات نابليون وكبريائه وعجبه؟ وما هو البطل نفسه حينما يوازن بسماء العدالة والرحمة المجيدة الرائعة التى استشعرها روحه واكتنهت سرها؟ لقد بدا له كل شئ تافهاً ضئيلاً لا يشبه من أى ناحيه تلك الأفكار الجدية الجليلة التى طالعه بها ما اعترى جسمه من الوهن واستنفاد القوى وتوقع الموت، فحينما كانت عيناه تلحظان الإمبراطور كان يفكر فى تفاهة العظمة وهوان شأنها ـ وتفاهة الحياة التى لا يعرف أحد غايتها ولا يدرى نهايتها ـ بل والأشد خطورة من ذلك هو أن شأن الموت المخبأ سره عن الأحياء.

ولم ينتظر نابليون جواب الأمير أندريا وقال «اعتنوا بهؤلاء السادة واحملوهم إلى الخيم، ودعوا

الدكتور لارى يتعهد جراحاتهم، وسنلتقى مرة ثانية يا أمير ريبنين»

وتركهم وقد تألق وجهه من الارتياح.

ولما رأى الجنود الذين كانوا يحملون بولكو نسكى عطف الأمبراطور على الأسرى واهتمامه بأمرهم أسرعوا فى إعادة الأيقونة الصغيرة التى علقتها شقيقته بعنقه، وكانوا قد سرقوها منه، وشعر فجأة بأنها مدلاة على صدره فوق سترته دون أن يعرف كيف وضعت ولا متى وضعت.

وحينما فكر فى شعور أخته العميق بالاحترام والتقوى الخالصة والعبادة قال لنفسه «ما أسعدنا لو كان كل شئ من البساطة والوضوح كما تعتقد ماريا! وحقيقة أنه سيكون من الخير أن نعرف أين نلتمس العون ونطلب الراحة فى هذه الحياة وماذا ينتظرنا بعد الموت، وسأكون سعيداً هادئ النفس رخى البال إذا استطعت أن أقول أيها المخلص رحمة بى» ولكن لمن أوجه ذلك القول؟ إن تلك القوى الخفية غير المحدودة التى لا أستطيع أن أولى وجهى شطرها لأعبر عن شعورى هى إما ذلك «الكل» العظيم أو أنها لا شئ، وقد تكون هى الله الذى اشتملت عليه أيقونة ماريا! لا شئ فى هذه الأرض مؤكد سوى قلة شأن كل شئ فى حدود

فهمى وجلال المجهول الذى لا يسبر عمقه ـ والحقيقة الفذة، وربما القوة العظيمة وحدها».

ورفعت المحفة الفذة، وكان كل هزة يشعر بالألم الحاد الذى زادته الحمى والدوار اللذان ألما به، وتوهم أنه رأى أباه وأخته وزوجته. والطفل الذى سيولد له وصورة نابليون المشوهة القليلة الشأن ـ وكانت كل الخيالات والصور تروح وتجئ فى تلك السماء الزرقاء بغير قبة خلال أحلامه المحمومة جميعها، وكان يبدو له أنه قد عاد إلى ليسى جورى أنه يعيش عيشه سعيدة فى هدوء وسلام ثم فجأة يظهر أمامه صورة نابليون الصغير الجرم بنظرته المغرورة وارتياحه لكوارث الغير فيملأ ذلك نفسه بالشكوك والألم... ولكنه يعود إلى تأمل السماء الجميلة التي تعده وحدها بالخلاص.

وعند اقتراب الصباح اختلطت هذه الرؤى واشتبهت عليه سماتها به وقدة الحمى التى كان الأقرب احتمالا أن تنتهي بالموت لا بالابلال من المرض ـ كما قال الدكتور لارى طبيب نابليون الخاص.

قال الطبيب «إنه لن يتغلب على هذا المرض»، ووكل الطبيب أمره مع غيره من المرضى الميؤوس من حالاتهم إلى رعاية مواطنى الإقليم».

وفى الفصل الثانى من الجزء الثانى من الرواية الذى وقفه تولستوى على وصف الحالة فى روسيا بعد معركة استرلتز وقبل غزو نابليون لها يعطينا تولستوى لمحات عن بعض الأعيان الذين كان فى يدهم زمام الأمور:

«وصل الأمير أندريا إلى بطرسبرج فى شهر أغسطس سنة ١٨٠٩، وفى هذا الوقت كان الشاب سبيرانسكي في ذروة مجده وحماسته للإصلاح، وفى ذلك الوقت أصيب القيصر (الإسكندر الأول) برض فى قدمه من جراء سقوطه من عربته، واضطر إلى قضاء ثلاثة أسابيع على الأريكة، وكان سبيرانسكى يعمل معه كل يوم، وحينذاك أعد المرسومان الإمبراطوريان الشهيران اللذان قصد بهما أحداث تغيير ثورى في المجتمع الروسى، وأحد هذين المرسومين كان لإلغاء رتب البلاط والمرسوم الآخر لتنظيم الامتحانات الخاصة التى يجتازها المتقدمون لوظائف ضباط فى الخدمة العامة ومستشارين للدولة وقد تضمن أيضاً إحداث تغيير جوهرى فى وظائف الدولة جميعها من المجلس الإمبراطورى إلى أقل مجالس المدن شأناً، وكانت الأحلام الخاصة بالإصلاح الحر التى راودت عقل

الإمـبـراطور الإسكندر منذ تسلمــه العـرش قـد بدأت تتحقق تدريجياً بمساعدة مستشاريه مثل زارتوريسكى ونوفُو سلتزو وكوتشوبى وسترونجنو الذين كان يسميهم الإمبراطور مداعباً «لجنة الأمن العام».

وفى ظل ذلك الظرف الهام كان سبرانسكى يمثلهم جميعاً فى المسائل المدنية وكان اراكتشايف يمثلهم فى المسائل الحربية.

وكـان اخـتـيـار الأمـيـر أندريا حـاجـبـاً لجـلالة الإمبراطور يستوجب أن يذهب إلى البلاط ليقدم الطاعة، وبالرغم من أنه وقف مرتين فى طريق الإمـبـراطور فـإن الإسكندر لم يوجه إليه أى كلمــة، وتبـادر إلى ذهنه أن جلالته لا يرتاح له أو لا يستحسن شكله، وكان يؤكد فى نفسه هذا الشـمور النظرة الفاترة التى كان يتلقاه بها الإمبراطور، وسرعـان ما علم أن القيصر ضايقه اعتزاله الخدمة العامة فى سنة ١٨٠٥.

وقال الأمير أندريا لنفسه «لا نستطيع أن نتحكم فى عواطفنا، وسأبذل جهدى فى أن لا أقدم تقريرى عن القانون الحربى بنفسى، وأكتفى بأن أضمه أمامه ليأخذ فرصته بما فيه من مزايا!» ووضعه فى يد أحد المشيرين

المتقدمين فى السن وهو صديق لوالده، وقد قبل ذلك راضياً ووعد بأن يتحدث عنه فى حضرة الإمبراطور.

وفى خلال الأسبوع أشير على الأمير أندريا بمقابلة وزير الحربية الكونت اركتشايف، وفى الساعة التاسعة فى اليوم الموعود ظهر الأمير أندريا فى غرفة انتظار الكونت، ولم يكن يعرفه شخصياً، وما سمعه عنه لم يكن يستدعى الاحترام ولا التقدير.

ولكن الأمير أندريا قال لنفسه «إنه وزير الحربية وهو موضع ثقة الإمبراطور، فماذا يهمنى من صفاته الشخصية؟ إن فحص تقريرى جزء من عمله، وهو الوحيد الذى يستطيع أن يؤيد اهتماماتى».

.... ورجا الأمير أندريا الضابط المشرف أن يبلغ الوزير عن حضوره، فأخبره الضابط فى شئ من السخرية أن دوره سيأتى، ... وجاء دور الأمير أندريا.

فأسر أحد الحاضرين فى أذنه قائلا «إلى اليمين بعد النافذة».

وسمح له بالدخول إلى المكتب الخاص، ولم يكن فخم الأثاث وإنما كان نظيفاً حسن التنسيق، ورأى أمامه رلا يناهز الأربعين طويل القامة بصورة لا تخلو

من الغرابة وله رأس مستطيل لا يقل غرابة، وكان شعره متلبداً وقد تغضّن وجهه وحاجباه الكثيفان يتلاقيان فوق عينين زرقاوين كليلتين وأنف متهدل قرمزى، وحول صاحب المقام الرفيع هذا رأسه نحو القادم الجديد وقال دون أن ينظر إليه:

«ماذا تريد؟»

فقال الأمير أندريا «لا أريد شيئاً يا صاحب الفخامة».

فرفع اراكتشايف عينيه وقال «اجلس، أنت الأمير بولكونسكى؟»

«إنى أريد شيئاً سوى معرفة هل صاحب الجلالة الإمبراطور قد تنازل وأحال على فخامتكم مذكرتى؟».

فأجاب آراكتشايف معترضاً «اسمح لى أن أخبرك يا صاحبى العزيز أنى قرأت مذكرتك»، (واستهل حديثه فى شئ من الهدوء ولكنه عاد بعد كلمة أو كلمتين إلى نغمة الغضب والازدراء) واسترسل يقول «أنك تقدم الاقتراحات القديمة للجيش، وهناك كثير من الاقتراحات القديمة ولا أحد يفرضها، والناس يكتبونها اليوم وهذا هو أسهل ما يعمل».

«كانت رغبة جلالته أن أنتظر رأى فخامتكم وأسأل ماذا تصنعون بمذكرتى».

«لقد أرسلتها إلى اللجنة بعد أن أوضحت رأيى» ونهض قائلا «وأنا لا أقر ما بها» وتناول وثيقة من المنضدة وناولها لبولكو نسكى قائلاً «هذه هى الوثيقة».

وكانت مكتوبة بالقلم الرصاص وكلماتها ناقصة الحروف «ليس لها أساس منطقى ومنقولة من القانون الفرنسى وتختلف عن قانوننا اختلافاً لا يقوم على أسس معقولة».

«وما هى اللجنة التى ستنظر فيها».

«لجنة مراجعة القانون الحربى، وقد وضعت اسم سموكم فى القائمة لتكون عضو شرف».

فابتسم الأمير أندريا قائلا «لم يكن لى أن أضم إلى هذه اللجنة».

فرفع صوته قائلا وقد أراه الباب «عضو شرف، أنت تفهم ذلك جيداً، طاب صباحك ـ حسن، من يتلوه فى الدخول؟».

... وكان حزب الإصلاح ينظر إلى الأمير أندريا

نظرة عطف، ففى اليوم التالى لمقابلته لاراكتشايف ذهب فى المساء إلى اجتماع بمنزل الكونت كوتشتوبى، وحدثه عن لقائه لاراكتشايف، فقال له كوتشوبى «يا صاحبى العزيز، وحتى حينما تكون عضواً فى اللجنة فإنك لا تستطيع أن تصنع شيئاً دون مساندة سبيرانسكى فهو الذى يعمل كل شئ، وسأتحدث إليه فى هذا المساء فقد وعدنى بالزيارة».

فسأله الأمير أندريا قائلاً «ولكن ما الذى يجعل سبيرانسكى يحفل بالقانون الحربى؟»

فهز كوتشوبى رأسه مبتسما فى دهشة من بساطة السؤال:

«لقد تحدثنا عنك ـ وعن عمالك الأحرار».

فقال رجل من الحاضرين متقدم السن فى حدة، أوه ! أنت إذن الأمير الذى حرر المزارعين» وكان هذا الرجل من بقايا عهد الملكة كاترين.

وأراد بلكونسكى أن يهدئ غضب الرجل المتقدم فى السن فهون الأمر قائلا «أنها ضيعة جدّ صغيرة ولا تدر سوى دخل قليل».

فأجاب العجوز «لقد تسرعت أكثر مما يلزم» ونظر إلى كوتشوبى وأضاف قائلا «ما أريد أن أعرفه هو من يقوم بفلح الأرض إذا حررنا المزارعين؟ وصدقنى أن سن القوانين أسهل من الحكم بمقتضى تلك القوانين، واسمح لى أن أسألك يا كونت من يعين قاضياً حينما يتقدم الجميع للإمتحان؟».

فأجاب كوتشوبى «حسن، احسب هؤلاء الذين ينجحون فى الامتحان».

وفى خلال هذا الحديث حضر سبيرانسكى، وقدم كوتشوبى الأمير أندريا لسبيرانسكى، فنظر إليه صامتاً مدة دقيقة أو دقيقتين ثم قال:

«إنى مسرور بمعرفتى لك وقد سمعت عنك كثيراً».

وذكر كوتشوبى له فى إيجاز لقاء بلكونسكى لاراكتشايف، فابتسم سبيرانسكى وقال أن رئيس اللجنة صديقى وإذا شئت فإني أستطيع أن أعدك بتيسير لقائك له» ثم أضاف قائلاً «وآمل أنه سيحسن لقاءك ويعنى بكل ما يراه نافعاً».

وتحلقت حولهما جماعة، وعجب الأمير أندريا للهدوء المشوب بالاحتقار الذى رد به سبيرانسكى على

الرجل المسن الذى حمل على الإصلاحات الجديدة وكان كأنه يتنازل من عليائه وهو يفسر هذه الاصلاحات وحينما رفع المسن الذى كان يجادله صوته اكتفى بالابتسام ولم يسترسل فى الكلام مبدياً أنه لا يرى نفسه أهلا ليكون حكماً على نفع القرارات التى يصدرها القيصر أو عدم نفعها.

وبعد مضى دقائق على ذلك الحديث العام قام من مقعده وقاد الأمير أندريا إلى آخر الركن الآخر من الحجرة، وكان مما يلائم أفكاره أن يتحدث مع الأمير أندريا.

«لقد غلبنى على أمرى هياج ذلك السيد المسن فلم أجد وقتاً لأتبادل معك بضع كلمات» قال ذلك وقد علت وجهه تلك الابتسامة التى يشوبها شئ من الاحتقار يبين أنه يريد أن يفضي بشعوره بتفاهة الجماعة التى يخالطها، وشعر الأمير أندريا بأنه يتملقه.

واسترسل اسبيرانسكى يقول: «لقد عرفتك منذ وقت طويل عن طريق شهرتك، وتحريرك للفلاحين مثال أود أن يقتدى به الناس، والشئ الثانى أنك الحاجب الوحيد من حجاب الملك الذى لم يسؤه القرار

الإمبراطورى الخاص بنظام الرتب فى البلاط، وقد أثار ذلك القرار الكثير من الغضب والنقمة ».

«حقيقة أن والدى لم يشأ أن أستغل امتيازاتى، وقد بدأت الخدمة من الدرجات الصغيرة».

«إن والدك ولو أنه من رجال الجيل الماضى ولكنه أسمى بكثير من هؤلاء المعاصرين لنا الذى ينتقدون هذا المرسوم، إنه يرمى إلى إقامة العدالة على أسس سليمة» فقال الأمير أندريا وهو يحاول بذل مجهود للتخلص من تأثير الرجل «وبرغم ذلك أميل إلى التفكير فى أن هناك أساساً للنقد» ولم يقبل الأمير أندريا أن يسلم للرجل بكل ما يرى بل مال إلى مناقضته، ولكن عقله كان مشغولاً بملاحظة الرجل إلى حد أنه لم يستطع أن يعبر عن أفكاره ببراعته العادية».

وقال اسبيرانسكى مبتسما «إنه نقد قائم على الخيلاء الشخصية»:

«إلى حد ما من غير شك، ولكنه فى رأيى من أجل مصلحة الحكومة نفسها ».

«كيف ذلك؟» فقال الأمير أندريا «إنى من تلامذة منتسكييه».. ومن رأيه أن بعض الامتيازات الخاصة

والحقوق المكتسبة لازمة».

فاختفت الابتسامه من وجه سبيرانسكى، واكتسب وجهه الكثير لهذا التغيير وقد همته الملاحظة التى أبداها الأمير أندريا.

.... وبعد أسبوع من هذا الحديث عين الأمير أندريا عضواً فى لجنة تغيير القانون الحربى».

ويصف لنا تولستوى لقاء الأمير أندريا لنتاشا فى الفصل الخامس من الجزء الثانى، فقد كان الأمير مدعواً فى حفلة راقصة فخمة أقامها فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٠٩ أحد ذوى الأخطار ممن كان لهم شأن عظيم فى عهد كاترين الثانية، وحضر الحفلة القيصر الإسكندر الأول وكبار رجال دولته وحاشيته، وكان من المدعوين إلى الحفلة أفراد من أسرة روستوف، منهم نتاشا ووالدتها، وحينما بدأت الرقصة الأولى لم يلتفت أحد إلى نتاشا ولم يتقدم لمراقصتها أحد مما كدر خاطرها وأساء إلى كبريائها، وبينما كانت تعانى هذه الأزمة النفسية بعد انتهاء الرقصة الأولى تقدم بيير بيزوكو من الأمير أندريا وأشار عليه بمراقصة الكونتس نتاشا روستوف، ولم يكن الأمير أندريا قد لحظها فى

الحفل ودله على مكانها، فتبع الأمير أندريا ببير بيزوكو وأدرك الأمير أندريا حينما أقترب من نتاشا ما يخالج شعورها، وتقدم الأمير من الكونتس والدتها وحياها،وقالت له الوالدة «اسمح لى أن أقدم لك ابنتى» فأجابها الأمير أندريا «إن لى شرف معرفتها، ولكنى لا أدرى هل تذكرنى أو لا، وطلب من نتاشا أن تراقصه فأشرق وجهها بابتسامة عريضة، وتوقدت عيناها واختفت الدموع التى كادت تهم بالسقوط من عينيها، وكأنها كانت تقول «لقد انتظرتك منذ الأبد».

وكان الأمير أندريا يحسن الرقص، وقد آثر مراقصة نتاشا ليضع حداً للمحادثات السياسية المملة التى ضايقته فى هذا الحفل، وما عتم أن بدأ مراقصتها ووضع يده حول جسمها اللدن الأهيف وشعر بتمايلها وانسيابها فى عناقه حتى أخذ بسحر جمالها وأحس عودته إلى الشباب والحياة، وكان هذا بدء تمكن حبه لنتاشا وهى إحدى شخصيات الرواية العظيمة التى أبدع تولستوى فى تصويرها.

وقد أنهى تولستوى روايته بخاتمة طويلة بسط فيها ما يصح أن نسميه مذهبه فى فلسفه التاريخ، وقد

أفضى بتولستوى تأمل الحياة البشرية إلى الإعتقاد بأننا فى هذه الحياة الأرضية الفانية لا نفعل ما نريد، وإنما نفعل ما يراد بنا، وأننا لسنا سادة أنفسنا كما يزين لنا الخيال، وإنما نحن خاضعون للقدر، وقد سمى هذا القانون المسيطر على حياة الأفراد قانون «الحتم» وحاول أن يعارض به قانون «الإرادة» الذى يمثله لنا الوهم، وحاول فى روايته أن يبين أثر هذا القانون فى حياة الأفراد الضيقة المحدودة وفى حياة الأمم والجماعات البعيدة المدى المترامية الآفاق.

ومن كلماته في هذه الخاتمة قوله فى الفصل الثانى منها «إذا زعمنا كما يزعم المؤرخون أن الرجال العظماء وحدهم هم الذين يمكنون الإنسانية من تحقيق الأغراض العظيمة مثل رفع شأن روسيا أو فرنسا أو المحافظة على التوازن فى أوروبا أو نشر الأفكار الثورية أو التقدم العام أو أى شئ آخر فأنه يصبح من المستحيل علينا أن نفسر حوادث التاريخ بدون أن يكون عندنا أفكار معينة عن موضوع المصادفة والعبقرية.

وإذا كان هدف الحروب الأوروبية فى مطالع هذا القرن (القرن التاسع عشر) هو رفع شأن روسيا فإن

هذا الهدف كان يمكن تحقيقه بدون الحروب التى سبقته وبدون الغزو، وإذا كان هذا الهدف هو رفع شأن فرنسا فإن هذه الغاية كان يمكن تحقيقها بدون الثورة أو الإمبراطورية، وإذا كان هذا الغرض هو نشر الأفكار فأنه كان يمكن أن يتحقق بصورة أوفى عن طريق الصحافة مما لو تم بطريق الجنود، وإذا كان هذا الهدف هو تقدم الحضارة فأننا نستطيع حينئذ أن نفترض أن هناك طرقاً أكثر ملاءمة لمد رواق الحضارة وخير من إبادة المخلوقات البشرية وما يملكون، فلماذا إذن تحدث هذه الأشياء هكذا ولا تحدث بطريقة أخرى؟ ذلك لمجرد أنها حدثت كما حدثت.

والتاريخ يقول إن المصادفة خلقت الموقف والعبقرية أفادت منه، ولكن ما هى هذه «المصادفة وما هذه «العبقرية»؟

إن هذين الاصطلاحين «المصادفة» و «العبقرية» لا يدلان على شئ له وجود حقيقى، ولهذا لا يمكن أن نجد لهما تعريفاً، وهما لا يدلان إلا على درجة من درجات فهم المظهر، فحينما لا أعرف لماذا حدث مظهر من المظاهر افترض أننى لا أستطيع أن أعرف، ولذلك لا أريد أن أعرف وأكتفى بأن أقول لنفسى «إنه المصادفة»، وأرى قوة تنتج عملا لا يتناسب مع الخصائص العامة

للإنسانية، ولما كنت لا أعرف كيف تنشأ تلك القوة لذلك أقول لنفسى « إنها العبقرية».

ويضرب لنا تولستوى مثلاً من تناقض المؤرخين فى قوله «يناقض المؤرخون بعضهم بعضاً حتى فى تفسيراتهم للقوة التى يؤكدون أن نفوذ الشخص نفسه قام عليها، فتيير مثلاً المؤرخ البونابرتى يقول إن قوة نابليون كانت تقوم على عبقريته وحبه لفعل الخير فى حين أن لانفرى المؤرخ الجمهورى النزعة يؤكد أنها قامت على الاحتيال وخداعه للأمم، والمؤرخون من هذا الطراز بمناقضتهم بعضهم لبعض يقضون على إمكان تكوين أى فكرة واضحة عن القوة التى تنتج الحوادث ولذلك لا يقدمون لنا إجابة عن المسألة الجوهرية فى التاريخ».

واقحام هذه الآراء فى ختام الرواية لم يعجب بعض النقاد من رجال الأدب مثل الكاتب الروائى الفرنسى فلوبير ومثل الكاتب الروسى ترجنيف، ولكن بعض الباحثين المحدثين فى فلسفة التاريخ قد عنوا بها وتناولوها بالشرح والنقد، وربما كان فى طليعة هؤلاء الأستاذ برلين فى كتابه «القنفد والثعلب».

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥١٤٦/١٩٩٤

I.S.B.N 977-01-3913-0

مكتبة الأسرة





بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب